فلسفة الميثاق الوطني اللبناني تأجيل للدخول في مرحلة الوطن

مروان ناصر

اذا كان من الواضح تماما ان المشروع الاميركي المطروح لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي تسوية « نهائية » (قبل تغير اتجاه الرياح العربية المؤاتية حاليا لهذا المشروع) هو الاطار العام الذي تتحرك فيداخله الازمة اللبنانية الحالية ، فان لهذه الازمة خصوصيات واضحة ضمن هذا الاطار العام ،تتحدد بعدة عوامل ، منها ما اصبح يمثله لبنان بالنسبة للمقاومة الفلسطينية منموقع جغرافياخير في الجوار العربي المحيط باسرائيل ، ومنها التجاور الجغرافي بين لبنان وسوريا ، احد ابرز الاطراف المعنية مباشرة بمشروع التسوية المطروح ، ومنها خصوصية الوضع اللبناني بتركيبته الطائفية · فقد بقيت هذه التركيبة، منذ بداية نصف القرن الاخير في عمر الامبراطورية العثمانية ، تحاول الوصول الى صيغة للكيان الوطني اللبناني مبنية على التعدد الطائفي ، وقد كانت أخرها صيغة الميثاق الوطني التي بنيت على اساسها اول دولة مستقلة في لبنان المعاصر ·

وهذه الصيغة الاخيرة للعلاقة بين العناصر الطائفية للكيان اللبناني ، نمت تحت الانتداب الفرنسي ، وكان يتوقع لها مهندسوها وفلاسفتها ، ان تكون الحلقة الاخيرة في سلسلة الصيغ المتعددة للتركيب الطائفي للمجتمع اللبناني ، وان تكون بالتالي المدخل للانتقال بلبنان الى مرحلة الوطن ذي النسيج الاجتماعي الموحد والمتماسك ، فتصبح الخلفية التعددية في تركيبه الطائفي عامل اثراء بشري ، لا عامل تفجير كامن ، يلتهب في كل مرة يصل فيها الوطن الى مفترق طرق امام قضية مصيرية من قضاياه ·

لقد عرف الكيان الوطني لعدة بلدان الاهتزازات العنيفة التي عصفت بوحدة الوطن ، بل وجزأتها ، بفعل الصراعات الطائفية (كالهند) ولكن الصيغة الوطنية اللبنانية كانت من بين هذه المجموعة ، الاكثر تعرضا لاعادة النظر فيها ، والتهديد بنسفها (خاصة من قبل الطرف الانعزالي)· بل ان هذه الصيغة قد كشفت عن هشاشتها حتى في مرحلة تكونها الجنيني تحت الانتداب الفرنسي ، عندما وصل حد الاهتزاز بالصيغة الوطنية الموحدة (المبنية على التعايش الطائفي) الى حد التخوف من استقلال الوطن ، بل والعمل الايجابي المباشر ضد استقلال الوطن ، لدرجة ان فئات سياسية كبيرة في لبنان كانت تبني خطط تحركها السياسي على اساس بقاء الانتداب ، حتى فاق حماسها لبقاء الانتداب ـ في اواخر ايامه ـ حماس دولة الانتداب نفسه ،التي كانت سياستها في لبنان تقررها عوامل ذاتية ودولية تتجاوز الرقعة الجغرافية اللبنانية ·

من هنا تكتسب هذه الخصوصية في الوضع اللبناني (خصوصية الخلفية الطائفية للكيان الوطني) اهمية خاصة في فهم وتحليل اسباب ومسار الازمة اللبنانية الحالية ، بحيث ان بالامكان القول بغير